تدبر القرآن

اليوم رقم 15

ابن قرناس

بسم الله الرحمن الرحيم

اليوم سنستعرض سورة النساء، التي تلت البقرة في النزول، وتعتبر امتداداً لها، وتستكمل تشريعاتها ومواضيعها، بل وتشابهها في الطول. كما ترصد مواقف المسلمين بعد فرض سورة البقرة الخروج لقتال قريش التي تحشد حشودها لمهاجمتهم، وترينا أن فئات عدة من المسلمين لم يرغبوا في الخروج، وبعضهم كان يثني غيره عن الخروج ويثبط عزائمهم. وهي صورة ليست مثالية للمسلمين قبيل أول معركة في الإسلام – بدر– وتخالف ما رسمته كتب السير والتاريخ عن ذلك المجتمع المسلم، وأنه كان هو المبادر بملاحقة قريش ونهب قوافلهم التجارية. وأن قريش – حمل وديع - لم تكن ترغب الحرب، لكنها اضطرت لذلك اضطراراً للدفاع عن أموالها وقوافلها. (لعنة الله على الكافرين، كيف مسخوا تاريخ الإسلام)

والنساء تواصل فرض التشريعات التي بدأتها سورة البقرة. لأن الرسول أول ما وصل للمدينة حتى قابله المسلمون والمسلمات، بأسئلة عما يجوز وما يحرم، وعن مشاكلهم العائلية التي توارثوها، والتي تمثل ظلم لا يرضاه الله. كالظهار الذي ذكرته سورة المجادلة، ومشاكل الطلاق، والتضييق على المطلقة لاسترجاع الصداق، والعضل، والإيلاء، والمشاكل الأخرى. إضافة لأن الإسلام أصبح له دولة ومجتمع، وحان وقت نزول التشريعات التي تنظم حياتهم اليومية بما يرضي الله ويتوافق مع دينه، وتكمل لهم دينهم باكتمال تشريعاته الدينية.

ولذلك نجد السورة تبدأ مباشرة بفرض قوانين أحوال شخصية متنوعة، تحل المشاكل الموجودة في المجتمع وقت نزول السورة، بعد أن أصبح هناك دولة مسلمة واستقر الرسول ومن سبقه من المهاجرين: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً{1}.

الآية تشير إلى أن المرأة في ذلك المجتمع لا تعتبر شقيقة للرجل بل أدنى منزلة. والآية تنفي هذه النظرة وتؤكد أن الرجل والمرأة خلقا من "نفس واحدة" أي من نفس المواصفات وليس من إنسان واحد. فحتى من يعتقد أن جنس الإنسان بدأ مع آدم، لا يقولون أنه كان (أب وأم في نفس الوقت). هناك بعض المفسرين من اعتقد نظرية إسرائيلية تقول أن زوجة آدم التي أسموها "حواء" خلقها الله من ضلع آدم، وبالتالي فهي ستبقى عوجاء الفكر بالنسبة لهم، واختلقوا أحاديث وكأن الرسول هو من قالها وليس اليهود. القرآن يقول بكل وضوح أن الخلق الأول لسلالات البشر نبتت من الأرض (وهو ما يعني أنه كان هناك نساء ورجال أنبتوا) ثم صار التزاوج وسيلة للتناسل.

والسورة تظهر أن الرجل يتعامل مع المرأة على أنها أدنى مرتبة إنسانية، وهذه نظرة غير صحيحة. فالرجل نفسه – كما ذكر في سنة الأولين - هو نتاج تزاوج بين رجل وامرأة، أو بمعنى آخر هو نصف رجل ونصف امرأة. كما أن المرأة نصف امرأة ونصف رجل، وهذا ما يؤكده العلم. حيث أن جسم المرأة يحوي هرمونات ذكرية، وجسد الرجل يحوي هرمونات أنثوية. ولو اضطربت النسبة لأي سبب عارض أو نتيجة لمعالجة معينة، وزادت هرمونات الذكورة عند المرأة، فسينبت الشعر في أنحاء جسدها ووجهها كما الرجل، وسيصبح صوتها أجش، وستضمر ثدياها. بينما لو حدث وزادت الهرمونات الأنثوية لدى الرجل فسيختفي شعر الوجه وفي مناطق من الجسم، وسيرق صوته ويبدوا كالمرأة.

والقرآن لا يخالف هذه الحقيقة العلمية التي خلق الله بموجبها البشر، ويقول بأنه لا فرق بين الجنسين، مخالفاً بذلك العرف السائد في المجتمع آنذاك.

ثم تفرض السورة تشريعا لليتامى يضاف لما سبق لهم: وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً{2} وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ{3}.

فالمرأة إذا فقدت والديها أو أحدهما وأصبحت يتيمة فلا يجوز أن يأكل أحد ما ورثته، تحت أي مسمى. ويبدوا أن هذا ما كان سائداً فجاء القرآن ليبطله.

والآية الثالثة تقول أنه يحرم استغلال ضعف المرأة اليتيم، والزواج بها فقط للاستيلاء على مالها. ولكل من لا يستطيع إنصاف اليتيم فلا يتزوجها، ويمكنه أن يبحث عن زواج بفتاة أخرى، أو بالعدد الذي يشاء من الفتيات الأخريات، حسبما كان شائعاً في المجتمع وقت نزول الآية.

فالآية لا يمكن الاستدلال بها على أن التعدد سقفه أربع، كما يظن أتباع بعض المذاهب بناءً على قول الآية: مثنى وثلاث ورباع" ولا تسع كما يقول أتباع مذاهب أخرى. فمثنى وثلاث ورباع لا تعني الاكتفاء بأربع بل تقول: تزوج ما شئت من غير اليتامى وبالعدد الذي ترغب كما جرت العادة في ذلك الوقت. فالآية لا تشرع التعدد. وقوله مثنى وثلاث ورباع، مشابه لقول أحدنا: السوق أمامك اذهب واشتر من غيري سيارة أو ثنتين أو عشر. لرجل آخر اختلف معه على سعر سيارة معروضة للبيع. فالرجل ليس ملزماً بعدد من السيارات ولا بحد أعلى هو عشر لأني قلت له ما قلت. فالمعنى هو أن يشتري ما يريد من غيري إذا لم يعجبه سعري.

((أرجوا من يستغرب أن الآية لا تحدد سقفاً للتعدد أن يعيد قراءة الآية بهدوء)).

ثم تواصل السورة: وَآتُواْ النَّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً{4}.

الصدقات هنا هي جمعٌ للصداق أو المهر. وهو ما يدفعه الرجل في بعض المجتمعات مقابل زواجه بالمرأة. وفي هذه الحالة فلو تنازلت المرأة عن شيء منه أو كله فللرجل استعادته. ولا ننسى أن الصداق أو المهر ليس فرض بل هو عادة اجتماعية. والدليل ما سبق وذكرته سورة البقرة: لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنُّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ{236}. لكن لو دفع الصداق فيترتب عليه تشريعات ذكرتها البقرة.

والإسلام ليس هو الذي شرع المهر، بل جاء ومجتمعات يثرب وقد تكون كل مجتمعات جزيرة العرب تنتشر فيها تلك العادة، وهذا يعني أنه لو وجدت مجتمعات مسلمة لا تعرف عادة المهر فلا يعني أنهم قد خالفوا شرعاَ إسلامياَ، وأن زواج الرجل بالمرأة بدون مهر إذا تراضيا على ذلك فجائز، وإن خالف عادة عربية.

والوصاية على مال اليتيم (ذكراَ كان أو أنثى) جاء ليس لأنه أقل إنسانية، ولكن لأنه صغير ولم يرشد. ولو مكن من المال فقد يبذره، وتبذير المال من المحرمات في الإسلام، ولذلك فقد أمر القرآن بالحجر على كل من يبذر أمواله ولو كان بالغاَ: وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً.(النساء:5)

أما إذا كان راشداَ عاقلاَ فيمكّن من ماله ولو كان يتيماَ. والوصاية على مال اليتيم أو السفيه يمكن أن تكون عبر هيئة رسمية في دولة الإسلام تستثمر المال ويدفع منه رسوم التشغيل والوصاية وحقوق دولة الإسلام ، ثم تسلم له عندما يرشد بضوابط، للتأكد من أنه يحسن التصرف به.

والوصاية يمكن أن تكون على أي شخص في أي مرحلة من العمر إذا ثبت أنه يصرف ماله بطريقة عبثية أو تبذيرية: وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً.(النساء:6).

وفي الإسلام فالمال مال الله، للجميع الحق فيه. وماله من البشر وصي عليه ما دام يحسن التصرف فيه، لكن لو أساء وبذر فيجب الحجر عليه.

ويمكن الرجوع لهذا الموضوع للإستزاده:

http://www.facebook.com/notes/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%A7%D8%AD%D8%AB-%D8%A7%D8%A8%D9%86-%D9%82%D8%B1%D9%86%D8%A7%D8%B3/%D9%87%D9%84-%D8%A7%D9%84%D8%BA%D9%86%D9%8A-%D8%AD%D8%B1-%D8%A8%D9%85%D8%A7%D9%84%D9%87/120942811320916

ومن التشريعات الجديدة المخالفة للعادات السائدة زمن الرسول في سورة النساء والخاصة بالمرأة أنها ترث مثلها مثل الرجل، وهو شيء لم يكن يعمل به رجال ذلك المجتمع الذي اعتاد أن يرث المرأة نفسها، حيث يعطى الولد الحق بأن يرث زوجة والده بعد وفاته.

يقول تعالى: لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضا.(النساء:7)

وتشرع السورة وجوب إعطاء من يحضر قسمة التركة من المحتاجين: وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً{8}.

ويمكن تطبيق هذا القانون في دولة عصرية، وذلك بأن تقتطع نسبة من التركة وتضم لبند في الميزانية خاص بمكافحة الفقر.

وتحذر السورة أن يقوم الرجل بتوزيع ماله قبل موته وترك ذريته للفاقة: وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً{9}.

وتعود السورة لتحذر من أكل أموال اليتامى أو التلاعب بها: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً{10}.

ثم تبدأ السورة بفرض تشريعات المواريث: يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبنَاؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيما حَكِيماً{11} وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ

شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ{12}.

ثم تقول السورة أن من يتقيد بهذه الحدود (التشريعات والقوانين الإلهية) فقد أطاع الله ورسوله، ومن خالفها فقد عصى الله ورسوله: تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{13} وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ{14}.

والرسول لم يشرع منها شيء، ومع ذلك قرنت السورة اسمه باسم الله، وكأنه شارك الله في التشريع. ذلك أنه لولا أن رسول الله بلغ رسالة ربه لما سمعنا ولا عرفنا بهذه الحدود. وعملنا بموجب هذه الحدود يعني تصديقنا أن محمد رسول لله، فأطعناه فيما ينقل لنا من ربه.

وتفرض السورة حداً للأنثى التي تقترف الفاحشة مع أنثى، وحداً للذكر الذي يقترف الفاحشة مع الذكر: وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً{15} وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ تَوَّاباً رَّحِيماً{16}.

وهذا يعني أن يثرب توجد فيها هذه الظاهرة، وقد تكون موجودة أيضاً في مكة، لكن التشريع نزل هنا لأن دولة الإسلام وجدت هنا. والتشريعات لا تفرض إلا بعد تكون جالية ومجتمع مسلم.

فالأنثى التي تقترف الفاحشة تحبس في بيت أهلها مدى الحياة، أو يجعل الله لها سبيلاً، كعلاجها وقبول رجل الزواج بها.

والذكر يؤذى، ليس بالضرب، ولكن نفسياً، لكي يضيق عليه، ويشعر بالخزي. ولا ينظر له كما هو حاصل الآن وكأنه مريض. بل هو فاسق ويجب أن يعزل، ويلفظ من المجتمع، إلا أن يعود لرشده ويستقيم ويتوب. فهذه الفواحش في منتهى القذارة ولا يجب التهاون معها، وليس مهماً، تأثير الإعلام الغربي.

ثم تفرض السورة بعض الضوابط والشروط للتوبة: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً{17} وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً{18}.

لقبول التوبة، يجب أن يقترف المرء الكبيرة وهو جاهل لحرمتها. وأن يتوب حالاً ولا يكررها: "ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ" = يتوب حالاً.

ولا تقبل التوبة لمن يستمرون باقتراف الكبائر حتى إذا شعر بدنو الأجل تاب. فهذا مثله مثل الكافر، لأن كلاهما مخلدان في النار. ((الموت الفعلي أو الموت المعنوي، وهو العجز ولو لم يمت)).

وهناك شروط أخرى ذكرتها سور أخرى. ويمكن الإطلاع على موضوع التوبة، على هذا الرابط:

http://www.facebook.com/notes/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%A7%D8%AD%D8%AB-%D8%A7%D8%A8%D9%86-%D9%82%D8%B1%D9%86%D8%A7%D8%B3/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%88%D8%A8%D8%A9-%D8%A8%D9%8A%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%82%D9%87-%D9%88%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B1%D8%A2%D9%86/111130308968833

وتعود السورة لفرض حدود (قوانين وتشريعات) للعلاقات الزوجية والأحوال الشخصية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً{19} وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً{20} وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً{21}.

الآية (19) تضع حداً للعادة التي تسمح بأن يرث الابن أو القريب زوجة أبيه أو قريبه من ضمن ما تركه من متاع: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً.

وبقية الآية تحرم عادات أخرى، هي العضل، وهو إجبار المرأة على البقاء مع زوج لا ترغبه لكي يضغط عليها لرد ما دفع لها من مهر: وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ. والمشكلة أننا في هذا العصر نشهد أن الزوج يأبى تطليق زوجته إلا بمبلغ محدد قد يفوق ما دفع، ويجد القاضي في المحكمة يعاونه على ذلك ويحكم له ليس فقط ضد المرأة المظلومة، بل ضد حد من حدود الله وصفه سبحانه بأنه :بهتان وأثم مبين"

والآية تقول: إذا دخل الزوج بزوجته فلا يجوز أخذ شيء مما سبق ودفع.

والعضل يمكن أن يكون على شكل إرغام البنت على الزواج بمن لا ترغب.

وقانون آخر، يحرم عادة أخرى كانت منتشرة: وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاء سَبِيلاً{22}.

وتفرض السورة قوانين لمن يحرم الزواج بهن: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً{23} وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللّهِ عَلَيْكُمْ

ما هو تعريف المحصن؟

يقول القرآن عن أم عيسى: وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ{12}.

فالإحصان هو العفاف، سواءً كانت متزوجة أو لم تتزوج. ومن معاني الإحصان هو الزواج. فهل المقصود بالمحصنات هو اللاتي لازلن في فترة التربص للطلاق؟

ثم تقول السورة: وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً{24} وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{25} يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{26}.

ثم تقول السورة: وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً{27} يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً{28}.

الآية 27 تشير إلى أن هناك فئات من الباحثين عن المتعة الحرام في يثرب. وسنتذكرهم وما سيفعلون في سورتي الأحزاب والنور.

ثم تخاطب السورة المؤمنين في يثرب: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً{29} وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً{30} إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً{31}.

السورة هنا تفرض تشريعاً (قانون) يحرم أي نوع من أنواع الخداع والحيل للاستيلاء على أموال الغير، ومن يفعل ذلك فيصلى النار، وهو ما ذكرته سورة البقرة من قبل: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ{188}البقرة.

والآية 31 تؤكد أن الكبائر لا تغفر ومن يستمر على كبيرة سيصلى النار، وهو ما سبق وأكدته سور سابقة.

وتؤكد السورة أن هناك فوارق طبيعية بين الرجل والمرأة لكنها لا تعني تفوق جنس على آخر: وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً{32}.

وتعود السورة للمواريث: وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً{33}.

ثم تعود لاستكمال ما تحدثت عنه الآية 32، والذي يؤكد أن الفوارق بين الذكر والأنثى لا يعني التفوق العرقي أو البشري: الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً{34} وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً{35}.

الآية 34 تتحدث بصفة عامة عن اللاتي تخافون نشوزهن. والنشوز هنا ليس عدم طاعة الزوج لممارسة الجماع، بل تعني ممارسة الفاحشة (التي تسمى: السحاق) التي ذكرت في الآية 15 السابقة: وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً{15}.

فمن يقترفن الفاحشة وهن متزوجات: فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ.

ولو كان الخلاف بين الزوجين لغير ذلك فالحل لا يكون بالهجر والضرب، بل بطريقة أخرى بينته الآية 35: " وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً".

مرت بنا آيات كثيرة تؤكد انه لا يجوز إجبار المرأة على البقاء مع زوج لا ترغب فيه، فكيف تجيز آية أخرى إجبارها على ذلك بالضرب.

ولكي نفهم ما تتحدث عنه الآية 34 ، علينا معرفة معنى "النشوز" في قوله تعالى: وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً.

ونقول: النشوز هنا لا يأتي بمعنى الرغبة عن جماع الزوج، ولكنه عدم الرغبة في البقاء مع الزوج. والآية رقم (35) تقول: وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً.

أي أنه في حال ووجد خلاف بين الزوج والزوجة يُعَرِّض استمرار الزواج للخطر، فأول ما يجب فعله ليس ضرب الزوج لزوجته، لأن القلوب إذا تكسر ودها، مثل الزجاجة كسرها لا يجبر. ولن يجبر الضرب سوء التفاهم بينهما بل سيزيد من حنق الزوجة وإصرارها على إنهاء الحياة الزوجية. ولذلك كان أول ما يجب القيام به عندما يكون هناك شحناء بين الزوجين هو تحكيم الآخرين في المشكلة القائمة، في محاولة لرأب الصدع والخروج بحل للمشكلة القائمة وتوقيع معاهدة تمنع وقوع مشاحنات في المستقبل حفاظاً على تماسك رابط الزواج .

والشحناء بين الزوجين تكون بسبب تعنت الزوجة وتكون بسبب تعنت الزوج، كما أن الزوجة قد تعرض عن الزوج وقد يعرض الزوج عن الزوجة، كما تخبرنا الآية رقم (128) وهي وما بعدها متممة لهذا الموضوع، ونصها: وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلا جُنَاحَ عَلَيهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً.

ويكون أول ما نقوم به هو محاولة الصلح كما ذكرت الآية (35)، ولكن إن كان الشقاق بين الزوجين كبيراً فقد يكون الطلاق أفضل من استمرار الزواج مع تكرر المشاحنات، وهو ما تقول به الآية (130): وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلّاً مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً.

فضرب الزوجة ليس لأنها امتنعت عن معاشرة زوجها أو أنها أعرضت عنه أو أن بينهما مشاحنات وتريد الطلاق، لأن كل هذا لا يوجب الضرب.

والمتدبر للآية يرى أن المرأة الصالحة القانتة لله والتي تبتعد عن كل ما نهى الله عنه في السر والعلانية " الصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ " وهذه وإن اختلفت مع زوجها أو نشزت عن عشرته فلا يحق له أو لغيره ضربها: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ

وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً{34}النساء.

بينما من يحق ضربها عكس تلك، وهي التي لا تحافظ على ما نهى الله عنه في الحياة الزوجية كلما غابت عنها العيون، وهي التي تهجر مضجع زوجها بسبب ممارستها لشيئ آخر، وهذا الشيئ هو الموجب لضربها وهجرانها وموعظتها علها تتوب "َاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ".

وهذا الشيئ قد يكون الذي تحدثت عنه نفس سورة النساء في آية رقم (15) السابقة، وهذا نصها: وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً.

ويكون هذا الأمر هو الفاحشة المعروفة (بالسحاق) التي توجب السجن في بيت أهلها إن لم تكن متزوجة، كما تقول الآية 15. بينما توجب الضرب على المتزوجة والوعظ والهجران فإن ثابت وتابت وإلا فالطلاق. وهو ما تقول به الآية (19): يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً.

ويكون الضرب فقط بحق الزوجة التي تمارس هذه الفاحشة، والضرب يقع عليها ليس شرطاً من قبل الزوج، ولكن من قبل المحكمة، كحد لمن تمارس هذه الفاحشة وهي متزوجة. وإلا فأي مشكلة تقع بين الزوجين أو اختلاف مهما كان بينهما لا يجيز للرجل أن يضرب زوجته، ولو ضربها فيقاد بذلك مثله مثل أي اعتداء من شخص على آخر.

ثم تذكر الآيات ببعض التشريعات السابقة: وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً{36}

الآية ترد على كل من يظن أن القرآن لا يهتم بالتعامل الإنساني، لأنهم يقلبون كتب التراث ولا يجدون سوى أحاديث تحض على الكراهية والتسلط والدم، ولا يعرفون القرآن. فقد أمر الله سبحانه بالإحسان، بالكلام والعين والمعاملة، بنفس مستوى الأمر بعبادة الله والبعد عن الشرك، لأن كل أمر إلهي في القرآن لا يحمل إلا معنىً واحداً هو الوجوب، وليس هناك أمر إلهي في القرآن يعطي للناس الخيار في إتباعه أو رفضه حسب الرغبة.

والآية توضح أن الإحسان يكون لكل الناس، دون النظر للمعتقد، كل بما يحتاج. فالغني والفقير يحتاج الإحسان بالكلمة الطيبة والتعامل الإنساني، مثل السؤال عن الصحة، والمواساة، والمشاركة في المشاعر، والتبركات والهدايا في المناسبات، والعون عند الحاجة .....الخ.

والدليل على أنه لكل الناس أن الآية المذكورة تقول إنه للوالدين، ولكل من للشخص به قرابة ولو من بعيد، ولليتامى نعرفهم أو لا نعرفهم، وللمساكين نعرفهم أو لا نعرفهم، والجار ذي القربى أي الملاصق، والجار بالجنب أي الجار الذي يحيط بنا من كل الجهات ولو لم يكن ملاصقاً، والصاحب بالجنب، قد تعني بلغة العصر أهل الحي. والإحسان يكون لابن السبيل حتى ولو لم نعرفه (ويدخل في ذلك الوافد)، والإحسان يجب للرقيق، بالمعاملة الإنسانية والمادية، عندما كان هناك رقيق.

وإذا نحن أحسنا لهؤلاء نكون قد أحسنا لكل الناس بلا استثناء، لأنه لن يتبقى أحد من الناس لا يدخل ضمن من ذكر في هذه الآية، دون أن نسألهم عن عقائدهم.

وهذا موضوع بعنوان: اللباقة الاجتماعية عن الإحسان والسلوك الإنساني الإسلامي الذي يجهله من لا يعرف القرآن:

http://www.facebook.com/notes/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%A7%D8%AD%D8%AB-%D8%A7%D8%A8%D9%86-%D9%82%D8%B1%D9%86%D8%A7%D8%B3/%D8%A7%D9%84%D9%84%D8%A8%D8%A7%D9%82%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%AC%D8%AA%D9%85%D8%A7%D8%B9%D9%8A%D8%A9/115546808527183

وتستمر السورة: الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً{37}

فالبخل هنا هو التوقف عن الإنفاق والإحسان. والآية تبشرهم بالنار، حتى لو اعتبروا مسلمين. ومثلهم من ينفق رياءً: وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاء قِرِيناً{38} وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّهُ وَكَانَ اللّهُ بِهِم عَلِيماً{39} إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً{40} فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيداً{41} يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثاً{42}.

وما أكثر من ينفق رياءً هذه الأيام، حيث نجد المساجد كلها أصبحت تحمل أسماء أشخاص من قام ببنائها، أو تجد من يقوم بتصوير تلفزيوني لتوزيعه ماءً بالمجان في رمضان، وأنواع لا حصر

لها من التباهي بعمل خيري. وغاب عن الناس - أو أنهم تناسوا - أن كل عمل ديني (تنفيذ لأمر إلهي) له أجر واحد. ومن أخذه في الدنيا بأي صورة فلن يناله في الآخرة.

ثم تنتقل السورة لتوجيه وتحذير بعض المسلمين مما بدر منهم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً{43}.

لقد قام بعض المسلمين بشرب الخمر (الذي لم يحرم بعد) وحضروا صلاة الجماعة مع الرسول، وكونهم تحت تأثير الخمر فلم يتمكنوا من السيطرة على أنفسهم والانضباط في الصلاة، وصدرت منهم أقوال سببت الإزعاج للمصلين، فجاءت الآية لتقول لؤلئك لا تحضروا الصلاة وأنتم سكارى حتى ينجلي أثر السكر وتتمكنوا من معرفة ما تقولون في الصلاة وتتموا الصلاة بخشوع. القانون يقول: لا يجوز حضور الصلاة على السكران.

القانون الثاني الذي فرض هو: وجوب الغسل على من هو جنب قبل الصلاة. (لاحظ أن هذا قبل فرض الوضوء)

القانون الثالث الذي ذكرته الآية هو: من كان جنباً لابد أن يغتسل (قبل الصلاة). لكن لو كان الجنب عابر سبيل (وليس هناك مكان يغتسل فيه) أو كان مريض (يتعذر عليه استخدام الماء) أو كان مسافراً لا يجد الماء، فيسقط الغسل.

وإن جاء أحد منكم من الغائط (الغائط وما في حكمه: البول، والريح) فلابد من التطهر بالماء دون الغسل. ومن لم يجد ماءً فليتيمم، بأن يضرب يده بالتراب ويمسح وجهه ويديه. ولا وجود في كتاب الله لما ابتدعه رجال الفقه وأسموه: الاستنجاء والاستجمار، وهو – كما قالوا – تنظيف السبيلين بحجارة أو تراب دون الماء.

يمكن ملاحظة أن غسل الجنب وتطهير السبيلين بالماء فرض قبل فرض الوضوء.

ثم تتجه السورة بالحديث عن أهل يثرب من أهل الكتاب بمختلف طوائفهم: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ{44} وَاللّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيراً{45} مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً{46}.

وهو تحذير للمسلمين من الاستماع لما عرف بالإسرائيليات، تكرر في أكثر من سورة، لكن المسلمين تجاهلوه، وتبنوا الإسرائيليات واعتبروها من دين الله.

فبني إسرائيل واليهود معروفين بالقصص الديني المختلق، ولو استمع له المسلمون وتأثروا به فهو عين الضلال.

الآية: 46 تنهى المسلمين من استخدام لفظ : "راعنا" ولعل السبب أنه من المعتاد أن يكون للفظ ما معنى سيء في الاستخدام العامي بخلاف معناه العادي. واليهود يستخدمون لفظ "راعنا" بمعناه السيئ المعروف لديهم، وليس بمعناها الواضح المرادف لـ "انظرنا". لذا تنهى الآية المسلمين عن استخدام لفظ "راعنا".

الآية 46 تؤكد أن اليهود كفار.

وتستمر السورة بمخاطبة أهل يثرب من أهل الكتاب:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً{47} إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً{48}.

دعوة للإيمان (ترك ديانتهم والدخول في الإسلام) وإلا فعليهم لعنة الله لكفرهم. (تأكيد آخر على كفرهم) وتقول لهم الآية 48 أن الله يغفر كل الخطايا مهما عظمت، إلا الشرك. وهذا رد على أهل الكتاب في يثرب الذين يقولون لمشركي قريش أن عقيدتكم سيقبلها الله (وهو ما ذكرته الآية 51 التي ستأتي " وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً"). وهذه الآية لا يمكن أن يستدل بها على أن الله سيغفر الكبائر للمسلم لو استمر عليها ومات، لأن الحديث في هذه الآيات ليس في هذا الموضوع وليس موجهاً للمسلمين.

وتستمر السورة تفضح أمرهم: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً{49} انظُرْ كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُّبِيناً{50} أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً{51} أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً{52} أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً{53} أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً{54} فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً{55}.

والآية 55 تشير لحقد أهل الكتاب في يثرب على بعث محمد من بني إسماعيل وليس منهم.

وتختم السورة الحديث عن أهل الكتاب (الكفار) وتقول:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً{56} وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً{57}.

والآية 56 تستخدم التصوير الحسي للعذاب وكأنه سيحرق الجلود وتستبدل، لزيادة الترهيب. أما هي هيئاتنا التي سيبعثنا الله عليها فلا علم لنا بها.

ثم تلتفت السورة لمخاطبة المسلمين: إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً{58}

تأدية الأمانة والوفاء بالوعد والعهد مخالفته كبيرة من الكبائر، وسبق أن أكدت ذلك سور مكية.

كما أن الحكم بالعدل فريضة وليس تفضل.

ثم تحدثنا السورة عن حادث وقع بين المسلمين في يثرب في الآيات:59-70، ولكي نتبين ما حدث علينا أن نتعرف على ما تقول كل آية:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً{59}.

هناك نزاع بين المسلمين. ورده لله والرسول يكون بأن يردوه للرسول، وسينتظر الرسول الوحي لينزل بالحكم. وبالتالي فعندما ينزل الوحي فهذا هو حكم الله. ويكون المسلمون ردوه لله، وقبل ذلك ردوه للرسول. وهذا بطبيعة الحال لا يمكن أن يحدث بعد وفاة الرسول. فالآية تخاطب المسلمين في يثرب زمن رسول الله وفي حادثة معينة.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً{60}

هذه الآية تقول أن هناك فئة ممن يزعمون أنهم آمنوا يريدوا أن يحتكموا لحكم "الطاغوت". أي حكم ضال غير إسلامي. والآية تظهر أنهم ممن أعلن دخول الإسلام من بني إسرائيل في يثرب، لأن الآية تعرفهم بأنهم " آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ". أي ممن آمن بمن قبل محمد

والإشارة هنا لموسى. ويبدوا أنهم سارعوا للبحث عن حكم فيما اختلفوا فيه إلى كتب اليهود أو رجال دينهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً{61}.

هذه الآية تصفهم بالمنافقين: من يعلن الإسلام وهو لم يسلم. وهم من تحدثت عنهم سورة البقرة في الآيات (8-20).

وأولئك لو أصبتهم مصيبة لتراكضوا للرسول: فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً{62}.

ثم تصفهم الآية التالية بأن قلوبهم (ضمائرهم وأفكارهم) ليست سليمة: أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً{63}.

وقد وصفتهم سورة البقرة أنهم: "في قلوبهم مرض (10).

وتقول السورة أن المؤمن يطيع الرسول لأن الرسول لا ينطق من هواه ولكنه يتلو ما يوحي به الله: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً{64}.

واستغفار الرسول لهم هنا لا يعني أن الله سيقبله ويغفر لهم لأن رسوله استغفر لهم، ولكن الآية تقول أن المسلم في ذلك العصر يستغفرون الله ويشهدون الرسول على التوبة. واستغفار الرسول لهم مثل دعوة الملائكة للمؤمنين معنوية تشعرهم بأن الله ورسوله معهم.

ثم تؤكد السورة: فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً{65}.

هنا الآية تؤكد أن طلبهم الحكم من غير القرآن، يحكم عليهم بأنهم ليسوا مؤمنين. فالمؤمن هو من يحكم كتاب الله (القرآن) وما عداه فلا يمثل دين الله. مثل كتب اليهود زمن الرسول ومن باب أولى الآن. وهو نفي قاطع أن يكون هناك دين لله مقبول عند الله غير الإسلام.

ثم تقول السورة خلاصة القول عنهم: وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً{66} وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْراً عَظِيماً{67} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{68} وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً{69} ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ عَلِيماً{70}.

فهم ممن أعلن إسلامه من بني إسرائيل واليهود ولم يسلموا، بل كانوا يبحثون عن منافع سلطوية أو جاه أو معنويات.

ويكون قد ظهر في عصر الرسول حتى الآن فئتين منافقتين:

1- مسلمة قريش: وهم منافقون من بعض من أعلن إسلامه من قريش، بعضهم ارتد قبل الهجرة، وبعضهم هاجر ولكنه بقي يوالي أقاربه المشركين.

2- مسلمة يثرب أو أهل الكتاب: وهم منافقون من بعض من أعلن إسلامه من أهل الكتاب في يثرب بحثاً عن أوضاع أفضل. لكنهم بقوا يؤمنون بكتبهم وديانتهم السابقة، ويوالون أقوامهم الذين لم يسلموا، ويتظاهرون بالإسلام فقط، وهم من تتكلم عنه هذه الآيات.

ونحن لازلنا في السنة الأولى للهجرة.

وتتحول السورة (الآيات:71-79) لمخاطبة المسلمين في يثرب وتحثهم على الاستعداد للقتال ضد قريش الذي كما يبدوا أصبح حتمياً. وهو ما يعني أن قريش مصرة على ملاحقة المسلمين والقضاء على الإسلام حتى بعد أن هاجروا ليثرب التي تبعد عن مكة مسيرة عشرة أيام على الأقل للجمال، أو بلغة العصر ما يقارب 450 كيلومتر: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً{71}.

والآية تحثهم على الخروج لميدان المعركة فراداً وجماعات مع الحيطة والحذر.

وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً{72} وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ الله لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً{73}.

لقد اختلفت مواقف المسلمين من الخروج لقتال قريش التي تطاردهم.

1. فهناك فئة ستتباطأ في الخروج وفي المسير، حتى تضمن نهاية المعركة قبل وصولهم. وهؤلاء لو انهزم المسلمون فسيحمدون الله أنهم لم يشهدوا المعركة معهم (فقد يصابون أو يقتلون). ولو انتصر المسلمون فسيتحسرون على تفويت فرصة اقتسام الغنائم معهم.

وقوله " إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً" شهيداً هنا تعني حاضراً وليس شهيد المعركة.

وتقول السورة أن القتال في سبيل الله يعتمد على من أخلص النية لله وباع دنياه بآخرته: فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً{74}.

والسورة تظهر تراخي بعض المسلمين من الاستعداد للحرب، مع أن هناك في مكة مسلمون من المستضعفين (عبيد وموالي) تحتجزهم قريش وتمنعهم من الهجرة: وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَـةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً{75}

وتؤكد السورة أن المسلمين يقاتلون باسم الله، بينما يقاتل المشركين باسم الشيطان: الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً{76}.

فالمسلمون يقاتلون بدافع دنيوي ديني يتمثل بحماية دين الله ودولته، وفيه رضى الله وضمان جنته. فالمسلم إن عاش فعزيز وإن مات فشهيد. أما الكفار فليس لديهم دافع سوى التسلط، وبما أنهم لا يؤمنون بالبعث فليس ما يدفعهم للتفريط بحياتهم.

2. ثم تذكر السورة فئة أخرى غير مرحبة بالقتال لبعض المسلمين: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً{77} أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً{78}.

وهؤلاء لا يريدون الخروج خشية الموت، وأصيبوا بالذعر لما كتب القتال. وتقول لهم السورة أنه إن لم يموتوا في المعركة فسيموتوا بسبب آخر فالموت حتمي لا مناص منه.

وهؤلاء لو دخلوا الحرب ولم يصابوا بسوء وانتصر المسلمون وأصابهم بعض المكاسب فسيفرحوا بها ويقولوا هي نعمة من الله. لكن لو قتل أحدهم أو أصيب فسيسارعون للقول للرسول أن هذا حصل لنا لأننا أطعناك، ولو لم نطعك لما حدث لنا شيء. وكل ما يحصل لهم من عند الله، بمعنى أنه لم يقرر عليهم مسبقاً ولكنه حدث بعلم الله وسيطرته ولو شاء لم يحدث.

وتقول السورة لمحمد، وتقصد كل شخص: مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً{79}.

فلو أصبتك حسنة (انتصار وغنائم) فمن الله، بمعنى علمه ورعايته ومشيئته، وليس تقريره المسبق. ولو حدث لك هزيمة فمن نفسك، كونك لم تقيم الوضع كما يجب وتستعد له بالمال والعتاد المناسب.

3. وتذكر السورة فئة ثالثة لا تريد الخروج لقتال قريش: مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً{80} وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً{81} أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً{82} وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً{83}.

** يرجى ملاحظة أسلوب القرآن هنا حيث يبدأ الحديث عن طاعة الرسول ثم تسرد المناسبة بعد ذلك.

وهذه فئة من المسلمين يبدون موافقتهم وامتثالهم لحث الرسول لهم بالاستعداد والخروج لملاقاة قريش، وبمجرد أن يغادروا مجلس الرسول يبيتون عكس ما قالوا للرسول.

وتأمرهم السورة أن يتدبروا القرآن ليتأكدوا من أنه حق من الله، فكيف يخالفونه. لأن رسول الله لا يأمرهم إلا بما يأمرهم القرآن.

وهذه الفئة إذا عرفوا أخباراً عن تحركات قريش أو عما يعتزم المسلمون فعله في أمور الحرب أذاعوا به فيصل إلى العدو. وكان حرياً بهم أن ينقلوه للرسول وإلى أهل الخبرة والدراية بأمور الحرب لكي يروا رأيهم لما فيه صالح المسلمين.

وتعود السورة للحديث، الذي ذكرته الآية 74، من أن القتال في سبيل الله يعتمد على من أخلص النية لله وباع دنياه بآخرته، والمخاطب رسول الله: فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً{84}.

لأن هذه الفئة المخلصة هي التي سيكتب النصر على يديها، ولو كانوا قلة. وهو ما فعله طالوت مع بعض بني إسرائيل حيث تخلص ممن لن يقدموا على القتال بإخلاص نية، وأبقى على المخلصين منهم فقط: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ

مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ{249} البقرة.

فالله لم ينزل على طالوت وحي في تلك اللحظة، ولكنه بفراسته عرف أن هناك فئات متراخية. وهذه لو بقيت في الجيش فستثبط العزائم وستسبب الخسارة. فقال لجيشه أن كل من يشرب من النهر فلن يشارك معنا في المعركة، لأنه يعلم أن من لا يرغب في القتال سيبحث عن أي عذر لمغادرة الجيش. ولو جاءته فرصة الانسحاب دون أن يوصف بالجبن فهذا ما يتمناه. وقد وفر هذه الفرصة طالوت بذكائه، وتخلص من كل من سيكون عبئاً على الجيش وسيسبب خسارة المعركة. واعتمد قلة يقاتلون بعزيمة ودافع وإيمان، وهو المطلوب في كل معركة للمسلمين ضد عدوهم، فليس العدد هم المهم ولكن العزيمة وصدق النوايا.

وتقرر السورة حقيقة أن: مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً{85}.

وتفرض السورة سلوكاً حضارياً آخر، ومظهراً لياقياً اجتماعياً راقياً: وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً{86}.

فكل من يحييك بتحية فحيه فأحسن وألطف منها، أو على الأقل يرد بمثلها: فمن قال: صباح الخير! فيقال له: صباح الخير والسرور، أو صبح الخير. وهكذا.

ولم تقل الآية أنه لا يجوز أن نحيي بعضنا بغير السلام عليكم التي هي التحية الرسمية للمسلمين. والتي لم يعرفها المسلمون عند مزول هذه السورة ولن يعرفوها إلا بعد نزول سورة الأحزاب.

وتقرر الآية حقيقة يعرفها المسلم: اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثاً{87}.

وتقول السورة أن هناك فئتين من المنافقين ممن أعلن إسلامه من قريش: فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً{88} وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً{89} إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ

اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً{90} سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنِةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوَاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثِقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَـئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً{91}.

الفئة الأولى يوالون المشركين ولم يهاجروا، وهؤلاء يخيرون بين الهجرة والانضمام للمسلمين أو البقاء في مكة ويكون حكمهم حكم المحاربين من قريش، ودمهم مباح للمسلمين.

والفئة الثانية من منافقي مكة، هم ممن لا يرغبون في قتالكم ولا قتال قبيلتهم قريش، وهؤلاء إن اعتزلوا حرب المسلمين وطلبوا التعايش السلمي معهم فلا يجوز للمسلمين ملاحقتهم أو قتالهم أو التضييق عليهم.

دليل آخر على أن الإسلام لا يقاتل الكفار لكفرهم، بل لعدائهم وحربهم للمسلمين. كما أن ما ورد دليل على أنه حتى المرتد من المسلمين لا يقاتل لردته، إن هو أعلن سلمه، وهو ما يعني انتفاء قتل المرتد المسالم. لكن لو ارتد وأعلن الحرب على الإسلام بأي شكل فيقتل لأنه عدو وليس لأنه كافر.

والآيات تقول أن المنافق كافر.

ثم تتحدث السورة عن موضوع آخر: وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً{92} وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً{93}.

قتل مسلم بطريق الخطأ، إن كان في دولة الإسلام، أو كان القتيل مسلم مؤمن (ليس منافق) ولكنه في قبيلة أو دولة ليست مسلمة ولكن بينها وبين دولة الإسلام مواثيق بعدم الاعتداء. فيجب على القاتل تحرير رقبة من المسلمين المؤمنين، كما تجب عليه الدية، ويمكن لأهل القتيل التنازل عن الدية. ومن لا يجد فعليه صيام شهرين كاملين متتابعين.

وما ورد ينفي أي دور لما أسماه الفقهاء (العاقلة) وهو ما يعني أن يقوم من يتصل بالقاتل بالنسب بجمع دية المقتول عوضاً عن القاتل، ويدفعونها لأهل القتيل. وبطبيعة الحال هذه عادة غير إسلامية، فالقاتل يقتل ويكرم بألا يدفع هو فلس واحد بل يقوم غيره بدفع الدية عنه. وهو ما يخالف

قوله تعالى: كل نفس بما كسبت رهينة، وألا تزر وازرة وزر أخرى. كما أن فيه دعوة عصبية مقيتة وحمية جاهلية حرمها القرآن. فالقرآن يقول كل شخص يتحمل بنفسه جريرة ما صدر منه.

كما أن ما ورد يخالف ما يحدث حالياً. حيث يقوم بعض من لديه جاه وسلطان ومال بشراء عفو المقتول، الذي قتل عمداً، لكي يُنقذ القاتل من القصاص الذي فرضه رب العالمين. وبالتالي فالفقير فقط هو من يقتل لو قتل. وهذا خروج عن أمر الله، وتعطيل لحدود الله. وإلا يجب ألا يتدخل أحد بين القاتل وأهل القتيل – من باب الضغط أو الترغيب بالمال – فإن عفى أهل القتيل بأريحية، وبدون مقابل مادي، فهو المطلوب. وإلا فالقاتل يقتل عبرة لغيره. ومنع تنفيذ القصاص، بإغراء أهل المقتول، شراءٌ للذمم بالمال، وتعطيل لحدود الله.

وما يقوم به أهل الجاه والسلطة والمال - لمنع قتل القاتل - فهو مشاركة له بالذنب، ولن ينقذ القاتل من لعنة الله والنار الذي نصت عليه الآية 93 بكل وضوح.

وتخاطب السورة المسلمين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً{94}.

تحذير شديد من مهاجمة أو سلب غير المسلم بحجة أنه ليس مسلم. فالإسلام لا يقاتل الكافر لكفره ولكن لعدائه للإسلام. ومن ألقى السلم (أي قبل التعايش السلمي مع المسلمين والإسلام) فيجب عدم التعرض له.

الملاحظ هو أن بعض المصاحف يكتب فيها لفظ (السلم) وكأنه (السلام) وهذه قراءة خاطئة. لأن المقصود بمن ألقى السلم. وهو: قبول التعايش بسلام، وليس من يلقي علينا تحية السلام. لأن إلقاء السلام قد يصدر من غير المسلم ولا يعني شيء، لكن إلقاء السلم يعني التعايش السلمي وهو المطلوب.

وما يؤكد ذلك أن تحية السلام لم تفرض بعد ولم يعرفها المسلمون عند نزول هذه السورة، كونها نزلت في سورة الأحزاب.

ثم تعود السورة للحديث عن الخروج لقتال قريش المنتظر: لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً{95} دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{96}.

من يقعد عن الخروج بدون عذر، فلا يمكن مساواته بالمجاهد. وهذه المقارنة مثل مقارنة القرآن في عديد من السور المسلم بالكافر: {مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ{24} هود.

وتتوجه السورة بالحديث إلى من لم يهاجر من المسلمين في مكة: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً{97} إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً{98} فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً{99} وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{100}.

الآية 97 لا عذر لمن يبقى في مكة وهو يستطيع الهجرة، لأن البقاء هناك يجعله لا يستطيع تأدية شعائر دينه ويطبق تشريعاته على حياته اليومية، لأن قريش لا تسمح بالتعايش السلمي معهم وسوف تضطهدهم وتحاول أن تفتنهم في دينهم. ولو بقي أولئك فمصيرهم النار.

لكن هناك استثناء بينته الآيتان: 98-99.

وتقول الآية 100 أن كل من هاجر في سبيل الله فالله كفيله في الدنيا والآخرة، حياً و ميتاً.

وهذا التشريع ساري المفعول، حتى الآن، كيره من التشريعات الإلهية.

ولأن الجهاد في سبيل الله فريضة هامة للإسلام وبقاء دولته، ولأن الصلاة يجب ألا تؤخر عن وقتها لأي سبب، فإن وقت المواجهة مع العدو هو الوقت الوحيد الذي تقصر فيه الصلاة لو حضر وقتها أثناء المواجهة مع العدو: وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوّاً مُّبِيناً{101} وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً{102} فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً{103}.

فقصر الصلاة حصر على وجوب وقتها أثناء المواجهة مع العدو (عندما كان الجيشان يتقابلان وجها لوجه)، ولو طالت الصلاة فسيستغلها الكفار بالهجوم على المسلمين وتمزيقهم.

(فهل قصر الصلاة هذه يرافقها الصلاة فرادى أم جماعة؟).

المؤكد أنه إن كان الرسول فيهم فهو من سيؤم الناس، وستكون الصلاة جماعة، كما تبين الآية: 102.

ولا تتحدث الآيات عن عدد ركعات الصلاة، وقوله: "فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ" تقول بكل وضوح أن الرسول سيؤم الناس وستصلي فئة معه وتبقى الفئة الثانية تحرس المصلين إذا سجدوا، وبعد أن تنهي الفئة الأولى نصف الصلاة تسلم وتبدل مكانها مع الفئة التي لم تصل. وقد فهمنا أن كل فئة تصلي نصف الصلاة العادية من الآية السابقة 101 والتي تقول بأن الصلاة تكون قصراً في حالة المواجهة مع العدو.

وتقول الآية التي تلي: فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً{103}.

والخطاب للمسلمين المقاتلين، وتحثهم في الجزء الأول من الآية على ذكر الله وتسبيحه عقب الصلاة استعانة به للقاء العدو، وفي الجزء الثاني تقول الآية: بالنسبة للصلوات الأخرى فيقيمونها كما هي بلا قصر. أما قصر الصلاة في السفر، وجمع وقتين معاً، الآن فليس له مرجع ديني من الله، بل هو من إنتاج رجال الدين وفقههم.

وتحث السورة المسلمين بلقاء قريش، وتقول هم بشر مثلكم يتألمون ويحزنون ويهزمون، لكنكم ترجون الله، بخلافهم: وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً{104}.

ثم تتوجه السورة لمخاطبة الرسول: إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً{105} وَاسْتَغْفِرِ اللّهَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً{106} وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً{107} يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً{108} هَاأَنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً{109} وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَّحِيماً{110} وَمَن

يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً{111} وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً{112} وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً{113} لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً{114} وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً{115}.

هذه الآيات تظهر حادثة وقعت في هذه الفترة، فقد قام أحد المسلمين بمحاولة إلصاق تهمة اقتراف فعل اقترفه هو بشخص آخر. وهذه الحادثة تحدثت عنها الآيات: 105-115، 135-136. ولكي نفهم ما حدث علينا أن نفهم الأسلوب المتبع في هذه الآيات لرواية الخبر:

ونبدأ بالآية 112، التي تخبرنا أن أحد المسلمين اقترف خطيئة وحاول إلصاق التهمة بشخص آخر: {وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً}.

وكان أهل وأقارب المخطئ قد رووا ما حدث للرسول بطريقة صدق عليه الصلاة والسلام معها أن ابنهم بريء وأن من قام بالفعل هو البريء الذي ألصقت به التهمة: {وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً{113}.

حتى أن الرسول كان يدافع عن الفاعل الحقيقي ويميل للتصديق أن المتهم البريء هو الفاعل: {وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً{107} يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً{108} هَاأَنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً{109}.

وبعد أن اتضحت الحقيقة وظهر كذب ادعاء الفاعل وأهله، تقول السورة أنه كان يجب على الفاعل أن يعترف بفعلته ويتوب، بدل اتهام شخص بريء: {وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَّحِيماً{110}.

وأن كل من يقترف إثماً فسيحاسب عليه في الآخرة، ولو فات الناس في الدنيا أن يحاسبوه أو يستدلوا عليه: {وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً{111}.

ويبدوا أن الفاعل وأهله الذين تضامنوا معه لم يعجبهم كشف الحقيقة، ودخلوا في جدال مع الرسول: {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً{115}.

فلم يكن يهمهم أن يتهم بريء، ولكن همهم ينصب في تبرئة ابنهم أمام الناس. وهذا السلوك لازال يعيش بيننا بوضوح وإصرار. فهناك من يعتبر نفسه فوق الشبهات، لدرجة لا يمكن أن يحاكم أو يتهم. وهذا الفكر مشابه لفكر أهل الكتاب الذين يقولون أنهم مفضلون على بقية البشر، ولن يؤاخذهم الله فيما يقترفون: {لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً{123} وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً{124}.

وتعود السورة للموضوع لتحذر المسلمين من كتم شهادة الحق ولو كان فيها ضرر على والديهم أو أولادهم أو أقاربهم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً{135}.

وأي شخص لا يلتزم بهذه القوانين الإلهية في قليل أو كثير فليس بمسلم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً{136}. فهل نحن نفعل ذلك أو نصر على فعل خلافه؟

والأخذ بعرف ما يسمى بالحصانة، بأي شكل، هو من الجهر بالسوء الذي لا يحبه الله، وما لا يحبه الله فهو من الكفر: {لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً عَلِيماً{148} إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً{149}.

ثم تتجه السورة بالحديث عن قريش: إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً{116} إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً{117} لَّعَنَهُ اللّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً{118} وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً{119} يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً{120} أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً{121}.

((يمكن ملاحظة أن السورة كررت مرتين: " إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ". في الآيتين: 48، 116، وكلاهما المعني بهما قريش، وتقول لهم أن الله لن يغفر لهم، حتى لو قال لهم أهل الكتاب أنهم مقبولون عند الله. ولا تعني أن مقترف الكبائر يمكن أن يغفر الله له إذا كان موحداً، كما يروج المفسرون والمحدثون)).

وهو ما تؤكده الآيات التالية: وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً{122} لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً{123} وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً{124} وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً{125} وَللّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً{126}.

هذه الآيات تعد المؤمنين خيراً عند ربهم، قبل أن تؤكد أن غفران الذنوب بالإيمان والعمل الصالح، وليس بأماني قريش التي تقول أن الله سيغفر لهم، ولا أماني أهل الكتاب الذين يقولون لهم أنكم خير من المسلمين عند الله، كما ورد في الآية:51 من سورة البقرة: " وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً".

وتعود السورة للحديث عن العلاقات الزوجية التي افتتحت به السورة: وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء اللَّاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً{127} وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً{128} وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً{129} وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللّهُ وَاسِعاً حَكِيماً{130}.

ثم تتوجه السورة بالدعوة لأنواع من الناس: وَللّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ غَنِيّاً حَمِيداً{131} وَللّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً{132} إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً{133} مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً بَصِيراً{134}.

ثم تعود السورة للحديث عما وقع وأخبرتنا به الآيات:105- 115، من ضرورة شهادة الحق ولو على أنفسنا وأولادنا وآبائنا وأهلنا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً{135} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً{136}.

وجوب قول الحق بغض النظر عمن سيتضرر من ذلك.

وتتحدث السورة عن المنافقين: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً{137} بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً{138} الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً{139}.

هؤلاء هم مسلمة قريش الذين أعلنوا إسلامهم في البداية ثم تحولوا لموالاة المشركين من قريش، فكفروا بعد إيمانهم ولو بقوا على شهادة التوحيد. لأن موالاة الكفار كفر ولو بقي الشخص يعلن الإسلام. ومسلمة قريش يعلنون الإسلام وهاجروا ليثرب، لكنهم يوالون قريش المشركة.

وتقول السورة للمؤمنين: وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً{140}.

والآية تشير إلى التحذير السابق في سورة الأنعام المكية والتي تخاطب الرسول: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{68}الأنعام.

الأصل هو التعايش مع الناس بسلام بغض النظر عن المعتقد، حتى لو كان منافق. لكن لو أن هذا المنافق سخر من الإسلام فلا يجوز مشاركته مجالسه أو إظهار المودة له.

وتبين الآية التالية بعض ما يضمره المنافق: الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللّهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً{141} إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً{142} مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً{143}.

وهؤلاء هم مسلمة قريش، فهم ليسوا مسلمين، وليسوا من مشركي قريش (مذبذبين).

وتحذرهم السورة مرة أخيرة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً{144} إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً{145} إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً{146} مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً{147}.

ومخاطبة السورة لهم بيا أيها المؤمنون، على اعتبار أن الفرصة لازالت قائمة لهم بالتوبة والعودة لحظيرة المؤمنين، لكن لو بقوا على حالهم فهم في الدرك الأسفل من النار (تصوير حسي لعظم ما ينتظرهم من عذاب). ومن يعود ويتوب منهم فله الجنة.

وتعود السورة للإشارة لما حدث في قصة اتهام البريء، وتطاول أهله بالكلام لطمس الحقيقة: لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً عَلِيماً{148} إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً{149}.

ثم تتجه السورة بالحديث عن أهل الكتاب في يثرب، بمختلف طوائفهم: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً{150} أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً{151} وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{152} يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً{153} وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً{154} فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً{155} وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً{156} وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً{157} بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً{158} وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً{159} فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيراً{160} وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً{161} لَّـكِنِ الرَّاسِخُونَ

فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَـئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً{162}.

وعيسى ابن مريم خلط التراث بينه وبين يسوع المسيحيين، وتوارث المسلمون هذا الخلط لدرجة لم يعد أحد – إلا ندرة – يعتقد أن يسوع لا علاقة له بعيسى ابن مريم، ويظنون أن عيسى هو يسوع، والاختلاف – حسب ظنهم – هو اختلاف بالنطق لاسم واحد. والحقيقة هي أن هذا الخلط وجد في وقت توثيق البدع وترسيخها أول العصر العباسي، وإلا فعيسى بعث لبني إسرائيل عندما كانوا يعيشون في مصر بعد هلاك فرعون ووفاة موسى، لكي يعيدهم للتوراة التي هجروها لتشريعات ابتدعوها. وقبل عصر داوود وسلميان وقبل أن يتشتت بني إسرائيل ويصل البعض منهم لفلسطين. فعيسى من بني إسرائيل الأصليين العرب الذين عاشوا في جنوب غرب جزيرة العرب ولم يعرفوا فلسطين الحالية. بينما يسوع ظهر بعد آلاف السنين في فلسطين لجمع مؤيدين له لكي يقوم بثورة ضد الحكم الروماني وتأسيس مملكة لبني إسرائيل تعيد مجد مملكة يسمعون بها في تاريخهم. لكن رجال الدين اليهود لم يعجبهم قيام دولة لبني إسرائيل لأنهم سيخسرون ميزاتهم وما يتمتعون به من جاه وسلطة في ظل الدولة الرومانية، فقاموا بمراقبة يسوع حتى تمكنوا منه في الليلة التي خطط فيها لاقتحام قصر الحاكم الروماني وقتله وإعلان دولته. فاقتادوه للحاكم بتهمة تخطيطه للثورة وحكم عليه بالقتل صلباً، وألبس تاجاً من شوك – سخرية به وبحركته الفاشلة ليكون ملكاً لمملكة لم ترى النور - وأجبر على حمل صليبه للمكان الذي صلب فيه، ومات.

واستمرت الدولة الرومانية تطارد أتباعه بعد موته الذين استمروا يعملون بالسر. وممن لاحقهم بحماس رجل يهودي اسمه "شاؤول" الذي لاحقهم وقتلهم وسجنهم لمدة زادت عن عشر سنوات، قبل أن يلتقي بحاخام يهودي ماكر في دمشق "اسمه: حنّانيا"، أقنعه أن الله – رب موسى – قد أوحى له أن ينفذ شيئاً آخر. وقد بقي هذا الشاؤول عند حنّانيا لمدة ثلاث سنوات تشرب كل ما يريد حنّانيا نشره عن حركة يسوع. فحنّانيا هذا أدرك أن ملاحقة أتباع يسوع وتقتيلهم لن يقضي عليهم بل سيزيد من أتباعهم، ووجد أن أفضل طريقة للقضاء على حركتهم هو تخريبها من الداخل. فأوحى لشاؤول أن الله قد اخبره أن يسوع لم يكن بشراً سوياً، ولكنه ابن لله، أرسل لكي يفدي بدمه الذي سفك على الصليب ذنوب البشر ويؤسس للمؤمنين به مملكة سماوية في الآخرة ولم يأت لتأسيس مملكة دنيوية. وهكذا بدأ شاؤول دعوته الجديدة وغير اسمه إلى (باول = بول) لكي ينسى الناس كراهيته السابقة لأتباع يسوع ومطارداته لهم.

وهكذا ولدت فكرة المسيحية الحالية التي لاعلاقة لها بالنصارى وعيسى ابن مريم. وحنّانيا – الذي على إطلاع تام بالنصرانية وعيسى المسيح – هو من أسبغ على يسوع لقب المسيح وأنه ابن الله (كما قال النصارى عن عيسى).

ولمن يرغب في قراءة مستفيضة عن الموضوع فعليه أن يقرأ كتاب: مسيحية بولس وقسطنطين.

وتتحول السورة لمخاطبة الرسول: إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً{163} وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً{164} رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً{165} لَّكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً{166}.

الآية الأخيرة تؤكد لمحمد أنه رسول حتى لو لم يعترف اليهود وبني إسرائيل بذلك.

ثم تتحدث السورة عن قريش: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلاَلاً بَعِيداً{167} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً{168} إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً{169}.

الآيات تتحدث معا كانت تفعله قريش قبل الهجرة: كانت تصد غيرها عن الدخول في الإسلام، وظلموا المستضعفين المسلمين بتعذيبهم.

وتتوجه السورة بدعوة كل الناس: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُواْ خَيْراً لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً{170}.

تعود السورة لما تحدثت عنه الآيات: 150- 162 الموجه لأهل الكتاب، وما قالته النصارى عن عيسى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً{171} لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً{172} فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً{173}.

فالنصارى طائفة من بني إسرائيل ظهرت بعد عيسى واعتقدوا أنه ابن لله وبعضهم اعتبره إله وأمه إله مع الله.

الآية:172-173 تقول كل عبد (مخلوق) لله لو استكبر عن عبادة الله فمصيره النار، سواءً كان بشراً أو من الملائكة. ((دليل على أن الملائكة معرضون للخطأ والعصيان وكل مخلوقات الله في الكون كذلك)).

ومرة أخرى تتجه السورة بدعوة كل الناس، كون يثرب يقطنها أناس بملل ونحل متنوعة عكس مكة التي فيها ملة واحدة: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً{174} فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{175}.

ففي يثرب زمن رسول الله: بنو إسرائيل ممن يحتفظون ببعض التوراة، وهناك يهود ظهروا بعد موت موسى. ونصارى موحدون، ونصارى يؤمن بعضهم بأن عيسى ابن لله، وبعضهم يؤمن أن عيسى وأمه والله (تعالى عن ذلك) آلهة معاً. وهناك الوثنيين من الأعراب ومن لم يدخل الإسلام من الأوس والخزرج، وهناك اللا- دينيين، وغيرهم.

وتختم السورة بالإجابة عن سؤال سأله الناس محمد عن الكلالة: يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{176}.

والقرآن لا يذكر ما يعرف في الفقه بالعصبة، وهم الورثة الذين يرد لهم ما بقي من التركة بعد أن يتم توزيعها. فمثلاً لو أن رجل هلك عن أخ وزوجة، فالزوجة ترث الربع (24/6) والأخ السدس (24/4)، أي 10 / 24 سهم من التركة، ويتبقى 14 سهم. هذه الأسهم الباقية تعطى للأخ (عصبة) لأنه أقرب الذكور نسباً للميت. ويكون وقد حصل على 18سهم من 24 سهم كامل التركة. بينما لم تحصل الزوجة التي فرض لها إرث في الأصل أكثر منه مرة ونصف، ومع ما اسموه بالعصبة أصبح يرث ثلاثة أضعاف ما حصلت عليه.

وأحياناً يحصل على ما بقي رجل لا يحق له أن يرث الميت مثل ابن عم، فقط لأنه أقرب رجل ذكر نسباً للميت.

وكما أهمل الفقهاء إعطاء المحتاجين من التركة فقد ابتدعوا هذا التشريع الذكوري. وإلا فكل ما يتبقى من التركة بعد أن تقسم على الورثة، يعاد لبيت مال المسلمين، ولا يعطى لأقرب ذكر. ""هذا طبعاً متى وجد دولة مسلمة تضمن الحياة الكريمة للناس. وإلا فالباقي يجب أن يصرف مباشرة على الفقراء والمحتاجين وبقية المجالات التي يصرف فيها الإنفاق. ولا يجوز أن يعاد للورثة، ومن باب أولى لا يعطى لمن يسمون العصبة.

ونكون قد وصلنا لنهاية هذا اليوم، وسنلتقي بإذن الله في اليوم رقم 16.

والسلام عليكم

ابن قرناس